

أهمية المعارض اقتصاديا واجتماعيا

لحضرة صاحب السعادة فؤاد أباطه بشا

مدير عام الجمعية الزراعية التركية

طلبت اني مجلة الشؤون الاجتماعية أن أكتب عن أهمية المعارض اقتصاديا واجتماعيا .
واني أشرف بتلبية الدعوة ، جاعلا موضوعي مبنيا على ما حدث فعلا في المعرض
الزراعي الصناعي الذي أقامته الجمعية الزراعية بجزيرة لقاهرة من ١٥ فبراير الى ١٥ أبريل
سنة ١٩٣٦ — وكان موعد إقامة المعرض بعده في مثل هذا الموعد من السنة الماضية إلا أن
أحداث الحروب قد أجلته نحس سنوات أخرى فيكون مواعده لقادم في أوائل سنة ١٩٤٦
إن شاء الله .

أما من الناحية الاقتصادية فقد جمع المعرض في ساحة واحدة متقاربة الجنبات مئات
المعارضين من الزراعة والصنع ولتجار . ولإنسان مطبوع على حب الترق والتقليد لما هو
حسن ، فتيحت الفرصة لكل منهم لكي يقارن بين ما عنده وما عند غيره ، وما وصل إليه
وما وصل إليه غيره ، ولا شك أن الزراعة والصناعة والتجارة وكل مظهر من مظاهر النشاط
الاقتصادي تتأثر بالبيئة تأثرا واضحا . ومصر على الرغم من أن تعداد سكانها يبلغ نحو
السبعة عشر مليوناً إلا أن رقعة أرضها ممتدة امتدادا كبيرا ، ومناخها وإن تقارب إلا أنه
مع ذلك يختلف إلى حد يسمح باختلاف الأساليب في الزراعة والصناعة والتجارة من إقليم
إلى إقليم ، وقد يتفق الزارع من أهل الصعيد عمره دون أن تتاح له فرصة للاتصال عن
قرب بالزارع من أهل الوجه البحري والتعرف على أساليبهم وتقاليدهم في الزراعة ، وما قيل
عن الزارع يقال عن الصناع وعن التاجر ، فقد أصبح لكل منهما أن يتصل عن قرب بإخوانه
وأقرانه من مختلف أنحاء مصر ، وأن يرى نتائج تفكيرهم وسعيهم معروضا على مقربة منه .

ولقد كان هذا التجمع عظيم الفائدة من غير ريب لأنه ساعد على تحسين الوسائل العتيقة
والأخذ بالوسائل الجديدة ، وساعد على التقريب بين مختلف نواحي الإنتاج في البلاد
وتنسيقها تنسيقا لا شك أنه يعود بنتائج كثيرة طيبة على الأفراد ، ولا ثم على المجموع أخيرا .
وهكذا أفاد المعرض في أنه بعث روح المنافسة الشديدة بين الطوائف المستجة في البلاد ،
وأتاح لها الفرصة لتبادل الأساليب ولأخذ بأفضلها نتيجة وأكثرها فائدة .

كان كثيرون من المصريين وعلى الأخص من أفراد الطبقات الغنية الذين يعيشون في المدن يجهلون الكثير عن تقدم الصناعة في بلادهم . وكانوا يعتمدون في شراء حاجياتهم على المتاجر الأجنبية والمصانع الأجنبية ، إما تظاهرا منهم بالثروة والتمدن الأوروبي ، أو رغبة في أن يقال عنهم إنهم من طبقة عالية ، وإما اعتقادا منهم أن المصنوعات المصرية لم تبلغ درجة الإتقان المطلوبة . شاهد هؤلاء بأعينهم في المعرض الزراعى الصناعى لسنة ١٩٣٦ نماذج ناطقة بمقدار ما بلغته الصناعة المصرية من تقدم وما حققته من إتقان . وشعروا أن المصلحة الخاصة قبل المصلحة الوطنية الصحيحة ، تناديهم بتشجيع الصانع المصرى والتاجر المصرى ، وتشجيع المصنع المصرى والصناعة المصرية .

على أن غمط الصناعة المصرية حقها لم يكن مقتصرًا على أفراد هذه الطبقات الغنية فحسب . ولكنه كان يمتد إلى فريق كبير من الطبقات المتوسطة ، ولم يكن السبب في انصراف هذا الفريق عن الصناعة المصرية إلا عدم معرفته بوجودها أو عدم اطمئنانه إلى جودتها وإتقانها . ومن ثم كان ينصرف إلى الصناعة الأجنبية يفضلها على غيرها ويشترى منها حاجاته ، وكان يعد شراءه بعض حاجاته من الصناعة المصرية بمثابة تضحية ، يبررها أحيانا بالرغبة في تشجيع عمل وطنى .

جاء معرض سنة ١٩٣٦ فبدد كل هذه الشكوك ، وأثبت للجميع بأدلة ناطقة محسوسة أن كل ما ألقوه بالصناعة المصرية والصناعات المصرية كان تجنيا .

ويمكن أن نعدّ - دون مغالاة - معرض سنة ١٩٣٦ البداية الصحيحة لاستقرار الصناعة في مصر . نعم إن معرض سنة ١٩٣٦ ومعرض سنة ١٩٣١ قد شمل معروضات كثيرة للصناعة المحلية ، ودلا لمن كان ينظر للأمر بعمق حينئذ على أن هذه الصناعة لا بد بالغة مرحلة الاستقرار والتوطد قريبا . ولكن كانت هناك أعين كثيرة تنظر بريية . فلما جاء معرض سنة ١٩٣٦ حقق نظر الفريق الأول وقضى على كل ريبة كانت تهاور الفريق الآخر .

وما يقال عن الصناعة في هذا الصدد يمكن أن يقال مثله عن الزراعة ، ولكن من طريق آخر . ولا شك أن شهرة مصر الزراعية شهرة عريقة ترجع إلى آلاف السنين فإن يد النيل الساحرة قد أحالت صحراها الجرداء منذ امتدت تجمع بين أعالي الوادى والبحر . فقيمة مصر الزراعية لم تكن يوما من الأيام موضع شك ، وخصوبة أرضها ظلت مضرب الأمثال منذ العصور القديمة ، ولكن الزمن يتطور ، وأساليب الزراعة تنتقل هي الأخرى من مرحلة إلى مرحلة ، وهى تخرج عن الأساليب القديمة التى كانت قائمة على التجربة والفهم المحليين إلى الأساليب العلمية القائمة على دراسة التربة والمناخ وتأثير النخصبات الكيماوية عليها وتنويع

الحاصلات طبقا لحاجات الأسواق . وقد احتوى معرض سنة ١٩٣٦ كثيرا مما يفيد في هذه الوجوه جميعا .

وقد زاره مئات الألوف من الزوار من أقصى أنحاء مصر . وكثيرون ممن زاروه - كانوا يحضرون إلى القاهرة لأول مرة ، لذلك شعروا أنهم يلمحون جديدا يفاير ما درجوا عليه . وذا كانت الأمة فاشية بين الكثرة العالبة من الفلاحين ، فإن عيونهم الفاحصة المدققة وقعت على عشرات المعروضات الزراعية ، وآذانهم المتفتحة استمعت لشرح الموظفين مختصين .

ولا ريب عندى في أن أثر هذا وذاك كان عميقا في نفوسهم . حملهم على أن يفكروا ويتكروا ويوارنوا بين ما يحصلون عليه من محاصيل ناتباع أساليبهم القديمة وبين ما يمكن أن تنتج الأرض لو اتبع في فتحها ما يشير به العلم وتوصى به أبحاث العلماء .

ونست أزعج أنهم انطلقوا إلى قراهم يعقبون أساليب العلم على أرضهم ولكنى لا أشك في أنهم بدأوا يفتحون آذانهم لكل ارشاد ، ويقبلون تجربة كل أسلوب جديد . وهذا في نظرى بداية التطور الذى نشده ، والذى رجو أن نناع إليه يوما من الأيام وحينئذ تصح لرعاة المصرية متمشية مع الأساليب العالمية قائمة على تجارب الباحثين .

كذلك فتح المعرض أذهانهم إلى أن الزراعة ليست انتاجا لمحاصيل زراعة فقط ، ولكن يمكن أن يتصل بها ، بل لا بد أن يتصل بها طائفة من الصناعات الزراعية تساعد على تحسين مستوى لكسب العام للفلاح وتحسين مستوى معيشته .

ولم يفد المعرض الزراع والصناع فحسب ، ولكنه أفاد الزراعة والصناعة ذتهما فان تنسيق معروضاته على الصورة التى نسقت بها وإبراز مجامى النهضة المصرية أتاح للمسؤولين من رجال الحكم والاقتصاد والمال ، أن يلمسوا عن قرب وبصورة مجسمة النهضة المصرية في بعض صورها وأتاح لهم أن يضعوا أيديهم على مكانم النقص والقصور فيها ومن ثم يضعون أيديهم على الواحى التى تحتاج إلى التشجيع والعلاج والدفع إلى الأمام .

كان للمعرض أثر واضح في تحسين وسائل الإعلان عن البضائع وعن المنتجات الصناعية والزراعية . وتمتج أمام التجار بابا واسعا للدرس والتعلم والتجربة ، فهموا منه أن التاجر الذى لا يجارى الزمن تور مجارته ، وأنه لا يظلب من التاجر أن يكون أمينا ومجدا ومحاصلا لعمله فحسب ، ولكن يظلب منه أن يحسن عرض سلعته على الناس ، وأن يحلق العملاء والزبائن حتى إذا لم يكونوا موجودين ، فلا يكفى أن تكون انصاعة جيدة التصنع ، معتدلة الثمن ولكنى يجب أن ينتقل إلى الناس هذا الفهم وأن يفريهم بالثراء منه والاقبال عليه . وهذا الفن فى الاعلان يكاد يكون فنا جديدا فى مصر فان جمهرة أنتجار المصريين لا يكادون يصنون به

كثيرا وهذا على التقيض من التجار الأجانب الذين يرصد كل منهم في ميزانيته مبلغا ضخما ينفقه في مطالب الإعلان والدعاية لسلعته .

كان المعرض إذن مناسبة حسنة أوحى بهذا الاتجاه الى كثير من التجار المصريين ، وشاهدوا بالتجربة العملية أثر الإعلان في ترويج البضاعة وتحقيق الربح .

وليس الاعلان فحسب ولكن حسن العرض . وأقصد عرض البضاعة وتنسيقها على صورة تجذب عين الشارى وتستأثر باهتمامه . والتجار المصريون في هذا أيضا متخلفون عن زملائهم الأجانب . ولكنهم شاهدوا في المعرض كيف كان حظ التاجر الذى أحسن تنسيق بضاعته وأجاد عرضها أوفر من زميله الذى أهمل هذا التنسيق .

وقد أحللتنا السودان ومعروضاته مكانهما بين معروضاتنا ، ونزل تجاره وزراعته وصناعاته في عاصمة وادى النيل مكرمين معززين ، وأقبل آلاف الزوار المصريين على معروضات إخوانهم السودانيين يرون فيها جديدا لم يكرتوا به رفوفه ، ويرون فيهم أخوانا ربطت بينهم الطبيعة والتاريخ والدين والتقاليد برباط دائم لا تفصم عراه .

لقد أدى المعرض من هذه الناحية فائدة جليلة ، وكسب من حيث توثيق علاقاتنا الاقتصادية بالسودان ما يعود بالخير علينا جميعا .

وهنا يطيب لى مرة أخرى أن أنزه بفضل حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون في تحقيق هذه الرسالة فإن ارشاده السامى وتوجيهه الحكيم وعطفه الواضح على كل جهد في سبيل توثيق العلاقات المصرية السودانية قد أثمر هذه النتائج الطيبة .

وأما من الناحية الاجتماعية فانه لا يمكن فصل الاقتصاد عن الاجتماع ، وحيثما تحقق مصالح اقتصادية لا بد أن تنشأ أيضا مصالح اجتماعية . وحيثما تنشأ عوامل اقتصادية تتابعها أو تقترن بها نتائج اجتماعية . ولا عجب في ذلك فان الاقتصاد هو تدير المال وتنظيم حركة الانتاج والاستهلاك ، والاجتماع هو سلوك الفرد في اتصاله بالجماعة الصغيرة التى يعيش فيها وبالجماعة الأكبر الذى ينتمى اليه . فالفرد هو قطب الدائرة في الاقتصاد وهذا الفرد ذاته هو قطب الدائرة في الاجتماع ، فأيا ما شئ يؤثر اقتصاديا لا بد أن يكون له عواقب اجتماعية والعكس صحيح أيضا .

وإذا كان من المسلم به أن المعرض كان له أثر حسن في تحسين الإنتاج الأهلئ في الزراعة والصناعة ، ومن ثم في زيادة دخل الفرد وتحسين مستوى كسبه سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا ، فان هذا التحسن في الدخل يؤدي حتما الى تحسن في مستوى المعيشة ، ومن ثم في الحياة الاجتماعية التى يحياها الفرد .

وقد كان المعرض فرصة طيبة جلبت الى القاهرة عشرات الألوف من الفلاحين من أهل بقري . وكثيرون منهم — كما قدمنا — كانوا يزورون القاهرة لأول مرة فوجدوا حياة تغاير حياتهم ، ووجدوا مستوى من النظافة والمعيشة خيرا من مستواهم . وفي الفرد رغبة شديدة في أن يتقدم وفي أن يبذل جهده لتحسين حاله وتقليد من هم أرقى منه . وهم لم يجدوا مستوى أفضل من حيث المعيشة فحسب ، ولكن من حيث الثقافة والفهم والنظام أيضا . ولاشك أن هذا كله كان له أثره في نفوسهم . واست أزعجنا أيضا أن هذا الأثر قد بلغ من الوضوح مبلغا يمكن أن يلمسه الانسان ويحسه ولكن مما لا شك فيه أن هذا الأثر وجد ، وأنه كان حقيقة من الحقائق التي لا يسع المنتصف الا التسليم بها .

كذلك كان للمعرض أثر آخر لعله أدق وأخفى ، ولكنه مثل سابقه وجد حتما . ذلك أن تجمع عدد كبير من المصريين من مختلف الأقاليم المصرية أتاح الفرصة لنوع من التعارف والتآلف يزيد من غير شك في مضاء الروح القومية وفي التقريب بين مختلف طبقات الشعب ومختلف سكان البلاد من جميع الأقاليم العربية والبعيدة .

ونحن حينما ننظر بعمق نتبين أن الشعوب الأكثر تآلفا وقومية هي الشعوب التي تتاح لها انفرص للتعارف والتجمع والتفاهم في أوساط واحدة ومناسبات واحدة . وإذا تقرر هذا فلا بد أن نذكر للمعرض سنة ١٩٣٦ هذه الفائدة . فقد كان أشبه بالمهرجان القومي منه بأى شيء آخر .

كذلك دل المعرض على ظاهرة من ظواهر التطور الاجتماعية في مصر ، أو بتعبير أدق كان امتحانا لها . وأعني بهذه الظاهرة احترام المرأة - فقد امتد المعرض نحو شهرين وزاره في كل يوم عشرات الألوف من الشباب والفتيات والرجال والنساء — زارته كل طبقات الأمة المصرية فكان سلوك الشباب والفتيات والرجال داعيا الى الارتياح ، ودلوا بتمسكهم بالآداب القومية وحسن سلوكهم في جميع المناسبات على أن المرأة المصرية قد أخذت في تكوين شخصيتها وفي أن تصبح عاملا هاما في بناء الجماعة المصرية . وقد اشتركت الفتيات المصريات في اثناء إقامة المعرض في مهرجان عيد الوطن الاقتصادي كما اشترك فريق آخر منهن في الاشراف على معروضات مدارس البنات ، فكان سلوك هذا الجمع مدعاة للاعجاب .

من الناحية الثقافية يصعب مره أخرى ونحن نتحدث عن آثار معرض سنة ١٩٣٦ ، أن نضع فروقا واضحة دقيقة لمختلف النواحي التي أثريتها المعرض بان لأثر الذي نتجته في الناحية الاقتصادية مثلا له مضاعفات — كما قدمنا — الناحية الاجتماعية . ونقول هنا إن الأثر الاجتماعي قد يصيب ناحية الثقافة فإن هذه الظواهر أو النواحي متربطة ومتشابكة ترابطا وتشابكا يصعب معه فصل أحدها عن الآخر . فإذا فعلنا ذلك هنا فانما نفعله من قبيل

التنظيم والتنسيق والرغبة في الإحاطة . أما في الواقع فإن هذه الآثار جميعا أصابت الحياة المصرية في شتى نواحيها . بدأ بعضها واضحا غاية الوضوح وبدأ البعض الآخر عميقا غاية العمق ودقيقا غاية الدقة ، حتى يُكاد الإنسان يخطئه ولا يراه مع أنه موجود لا شك في وجوده .

والمعرض في أصله زراعى صناعى ولكنه أتاح لآلاف الزواو فرصة طيبة لتوسيع ثقافتهم العامة والإحاطة بكثير من المسائل والموضوعات وجدت أمامهم معروضة أفصل عرض فاحذوا ماشاءوا من المعلومات بإيسر ما يمكن بذله من جهد .

ولم يكن زائر المعرض يخلو شأنه من أسرٍين فأما أن ما أمامه من المعروضات كان يهمله شخصيا أو يتصل بعمله أو مهته أو حرفته وإما أنه لا يتصل بها . وهو في الحالة الأولى يفيد درسا عمليا ويكسب فائدة تساعد على تحسين عمله أو زيادة ربحه من صنعتة أو حرفته وفي الحالة الثانية يزيد ثقافته العامة ويكسب تعريفا حديدا بأحوال بلاد ومنتجاتها . فيفتح ذهنه لتفكير في حاضرها ومستقبلها . وربما صححت له هذه المعلومات أخطاء قديمة وأفكارا كان يعتقها ولها في نفسه مكان العقيدة والايمان .

وكان بين زوار المعرض كثيرون من التجار والصناع والزراع فهؤلاء أفادوا من غير شك ثقافة جديدة . وكان بينه آلاف من الطلبة والمدرسين والمحامين والأطباء والمهندسين فهؤلاء جمعوا إلى معلوماتهم القديمة معلومات جديدة عن ثروة بلادهم وجهد العامل والزراع والتاجر في تكوينها . وكل واحد من هؤلاء لم يعد من جانب هذه الفائدة العامة فائدة خاصة يجنيها وتفيد في عمله إن لم يكن في الوقت الحاضر ففى المستقبل فأى طالب زار المعرض ولم يجد فيه ما يستوقف نظره مما يتصل بدراسته ومدرسته ، فقد كانت فيه هندسة وطب وزراعة وأشغال وتجارة وصناعة وفنون وآداب . وأى طبيب وأى محام وأى مهندس وأى كاتب أو صحافى أو خطيب جال في المعرض ولو جولة واحدة دون أن يجنى لنفسه فائدة ثقافية خاصة ؟ أى واحد من هؤلاء لم يجد ما يستوقف نظره وقد جمع المعرض جهد أمة بأكمله في جيل بأكمله ؟

إن فائدة المعرض الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كانت واضحة غاية الوضوح ، وقد أثار الحديث بين الزوار في كثير من الموضوعات ، وجعلهم يفكرون في الكثير مما تنتج بلادهم وفي الكثير مما تصنع ، وجعلهم يتباحثون في حاضرها ومستقبلها ، ووضع أمام أنظارهم بصورة محسوسة فصائل شعبهم القومية وفضائله التاريخية والتقليدية . وضع أمام أعينهم عناصر التقدم والتحفز للنهوض والسير إلى الأمام ، فدفع إلى صدورهم الايمان بمستقبل مصر ومجدها .

فؤاد أباطله